

تهذيب الكلام

قال زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المشهور بابن ابي الاربع المتوفى سنة ٦٥٤ في كتابه تحرير التعبير الذي فرغ من تعليقه بتصرفي مستهل سنة اربعين وستائة وهو من اجمل كتب البديع ومن اهم مخطوطات دار الكتب المصرية في باب التهذيب والتأديب : التهذيب عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله لينتفع ويتنبه منه لما مر على الناظر او الشاعر حين يكون مسغرق الفكر في العمل فيغير منه ما يجب تغييره ويحذف ما ينبغي حذفه واصلح ما يتعين اصلاحه ويكشف عما يشكك عليه من غريبه واعرابه ويحرر ما لم يتحرر من معانيه والفاظه حتى يتكامل صحته ونروق بهجته . فان رزق من ارباب البلاغة واصحاب الفصاحة جودة ذهن وغوص فكر وكال عقل واعتدال مزاج وحسن اختيار ووقف على افوال النقاد في حقيقة البلاغة وكنهه الفصاحة وما عد من محاسن الكلام وعبويه ووقفي شع نفسه بحيث يطرح ما لا يقدر على تغييره من كلامه كان كلامه موصوفاً بالمهذب منعوتاً بالمتقن وان قل ابتكاره للعاني . وقد كان زهير معروفاً بالمتقن فانه يروى انه كان يعمل القصيدة في شهر وينتهي في احد عشر شهراً حتى سمي شعره الحولي المحلى ولا جرم انه قلما سقط منه شيء ولهذا اشار ابوقمام بقوله .

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى والليل اسود رقعة الجلباب

فانه انما خص بتهذيب الفكر في الدجى لون الليل لانه تهادى فيه الاصوات وتسكن الحركات فيكون الفكر فيه مجتمعاً والخواطر خالياً ولا سيما في وسط الليل عند ما تأخذ النفس حظها من الراحة ونال قسطها من النوم ويخف عليها ثقل الغذاء فحينئذ يكون الذهن صحيحاً والصدر منشرحاً والقلب منبسطاً . واختياره وسط الليل دون السحر مع ما فيه من رقة الهواء وخفة الغذاء واخذ النفس سعيها من الراحة لما يكون في السحر من انبعاث اكثر الحيوانات الناطق والبهيم وارتفاع معظم الاصوات وجرس الحركات ونقص الظلماء بطلان الاضواء وبعض ذلك ينقسم الفكر ويتذبذب الخاطر ويستغل القلب وينفرق مجتمع الهم ووسط الليل حال عما ذكرناه ولهذا خص ابوقمام تهذيب الفكر بالدجى عادلاً عن الطرفين لما فيها من الشواغل

قال وكنت قد اطلعت على وصية وصي بها ابوقمام ابا عبادة البحراني في عمل الشعر . كان ابوقمام ارغبها لجهات محتاجة الى تحرير بعض معانيها وايضاح ما اشكل منها وازبادات يفتقر اليها فحررت منها ما يجب تحريره واضفت اليها ما يتعين اضافته وذكرتها في كتابي

المشعوت بالميزان في الترجيح بين كلام قدامة وخه ومه . وعلمت ان هذا الباب من هذا الكتاب
احوج اليها من ذلك فاثبتتها هاهنا بعد ان رأيت تقديم مقدمة يحتاج اليها ويجب الاعتماد
عليها وهي ان الذي يجب على كل من كان له ميل الى عمل الشعر واتشاء النثر ان يعتبر اولاً
نفسه ويتجنبها بالنظر في المعاني وتدقيق الفكر في استنباط المخترعات اذا وجد لها فائدة - سليمة
وجيدة موزونة وذكاة وقادراً وخاطراً سمحاً وفكراً ثاقباً وفهماً سريعاً وبصيرة مبصرة وألمعية
مهذبة وقوة حافظه وقدره حاكية وهمة عالية ولهجة فصيفة وفطنة صحيحة

ولو كانت بعض هذه الاوصاف غير لازمة لرب الاتشاء ولا يضطر اليها اكثر الشعراء
لكنها اذا كملت في الشاعر والكاظم كان موصوفاً في هذه الصناعة بكل الاوصاف النفسية
التي اذا أضيفت لها الصفات الدراسية تكمل وتكمل من حفظ اللغات العربية وتوابعها من
المعلوم الادبية كالنحو والتصرف والعروض والقوافي وما سوي به الشعراء من الضرورات
التي يلجئ اليها ضيق الوزن والتزام التقفية ليعلم بما يجوز له استعماله وما يجب عليه تجنبه ولينعم
النظر في كتب البلاغة ليعرف محاسن المنظر مفرداً وتركيباً ومعانيه ويحيط بما يتفرع من
اصول النقد في البديع الذي هو رقوم الكلام ونتائج مقدمات الافهام .

وليجعل عمدته على كتاب الله العزيز ولينمي اعجازها وادق تمييزاته البحر الذي لا تنفي
عجائبه ولا يظلم فيه رايه . منه استخرجت درر المحاسن واستنبطت عيون المعاني وعرف
كنه البلاغة وتحقق سر الفصاحة وكذلك سنة الرسول عليه السلام . ولينظف اشعار العرب
وامثالها واناسيا وابامها وسائر اخبارها ومماسن آثارها ومقاتل فرسانها الاتحاد ونواذر سمحاتها
الاجواد ولا غنى به عن معرفة التجوم والانواء ونظم هيئة السماء وتعلق الآثار العلوية
والحوادث الارضية والمشاركة في الطب والطبايع والحساب وما يحتاج اليه اكتاب من
الفقه والحديث ونقل التاريخ الصحيح . ويكون ذلك المكتسب من وراء اتياء لاكتسب
ولا تحصل بالطلب بل هي مما يجبل عليه الانسان من مواهب الرحمن من عقل راجع وذهن
صافر ورأي سديد ينتج ذلك مزاج متدل فيحسن اختياره ويجود نقابه . فيختير الالفاظ
الرفيعة والمعاني الرشيدة ويتقن تأليف الكلام وتركيب الالفاظ وما ياريد ابيات قلتهن
في هذا المعنى من بأس وهي

انتخب لقريض لفظاً رفيقاً كنسيم الرياض سيك الانهار

فاذا اللفظ رقيق شرف عن الـ معنى فابداه مثل ضوء النهار

مثل ما شفت الزجاجة جسيماً فاشتفتي لوتينا بلوت الدقار

هذا ان اراد ان 'يعت فاضلاً' او يسمى ادبياً كاملاً فنعلم ان العلماء درجته وتطير

بين الفضلاء سمعته وبقل فتوره في لنظ كل كلام ومعناه . ويجذر من ان يقف خاطره
بسبب معاندة الزمان وتواتر ضرور الحدثنان وتمذر المكسب وعز المطلب وتقدم الجهال
واختصاص الاراذل بالاموال فيكون ذلك داعياً له الى ترك الاشتغال وسبباً في فتور عزمه
عن تحصيل العلوم وذريعة لقموده عن رياضة نفسه واستعمال خاطره فيخلق بالاخسرين
اعمالاً والمخطئين افهالاً وافوالاً . بل يكون اجتهداه في ذلك اجتهدا راغب في الاعمال
شديد الانفة من مساواة الجهال عاشق في تزكية نفسه مايل للتقدم بنفس العلم على ابناء
جنسه وما احسن قول القائل

تعلم فليس المرء يولد عالمًا وليس اخو علم كمن هو جاهل
وان كبير العلم لا علم عنده صغير اذا التفت عليه المخافل

ولا بد للاجتهد من يوم محمد فيه عاقبة اجتهداه ويحصل فيه على مراده وان كان
قصير الهمة مبین النفس قد اوتي حظاً في العمل سليماً وذهناً مستقيماً فظن انه يستغني بذلك
عن الاشتغال ويبعد عن محالة الجهال ادلالاً بطبعه وانكالا على حذفه كما كثر شعراء
زماننا وكتابه والتنظيمين في سلك آدابه حاشا من احتفل بالادب احتفالاً اوجب لدوي
الادب الانتفاع بهذا الكتاب فلا يأنف من عرض ما يسمح به خاطره على من يحسن الظن
بعرفته ويتحقق ان مرتبه في العلم فوق مرتبه ولا يهمل ذلك فان خطره عظيم وفوق كل
ذي علم عليم . وان كنت في ذلك كمن يصف الدواء ولا يستعمله ويأمر بالمعروف ولا
يتناله غير اني انصح العارضي واحض على التوفيق لتحصل لي مثوبة الدلالة واكسب اجر
الهداية فان الدال على الخير كفعله والمعرض على العمل كعامله .

وليتمتع الراغب في نظم الشعر وانشاء النثر في وقت العمل على وصية الامام ابي تمام الذي
وعدت سالماً بشرها وهذا اوان ذكرها وهي ما اخبر به الثقة عن ابي عبادة المجتري الشاعر
انه قال : كنت في حديثي اروم الشعر وكنت ارجع فيه الى طبع سليم ولم اكن وقت
على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه حتى قصدت ابا تمام واتقطعت اليه وانكلت في تعريفة
عليه فكان اول ما قال لي يا ابا عبادة تخير الاوقات وانت قليل المصوم صفر من الغموم واعلم
ان العادة في الاوقات اذا قصد الانسان تأليف شيء اوحفظه ان يختار وقت السحر . وذلك
ان النفس تكون قد اخذت حظها من الراحة وفسطها من النوم وخف عنها ثقل الغذاء
وصفا من اكثر الانجرة والادخنة جسم الهواء وسلبت الغماغم ورفق النسائم وتغنت الحمام
وتغن بالشعر فان الغناء مضاره الذي يحزن فيه .

اجتهد في الايضاح فان اردت التذيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً واكثر فيه

من بيارب الصباية وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق والتعلل باستنشاق النسيم
وغناء الحائث والبروق اللامعة والنجوم الطالعة والنبيرم بالمذال والعواذل والوقوف على الطلل
المالح . واذا اخذت في مدح سيد ذي أباد فأشهر مناقبه واظهر مناسبه وابن معالمة وشرف
مقاومه وارفف من عزائمه ورجب في مكارمه ونقاض المعاني واحذر انجيول منها . واياك
ان تشوب شعرك بالعبارة الزرية والالفاظ الوحشية وناسب بين الالفاظ والمعاني في تأليف
الكلام وكن كأنك خياط تقدر الثياب على مقادير الاجسام . واذا عارضك الفخير فارح
خاطرك ولا تعمل الا وانت فارغ القلب . واجعل شهوتك لقول الشعر القريفة الى حسن
نظمه فان الشهوة نعم المعين . وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من اشعار الماضين فما
استحسنه العلماء فاقصده وما استقبحوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله تعالى .

وكن قد جمعت فصولاً يحتاج اليها العاقل في البلاغتين والراضع في الصنائع من
عدة كتب من كتب البلاغة وصرفت منها ما لا يحتاج اليه وتحتها وحررتها وهاهي :
ينبغي لك ايها الراغب في العمل السائر فيه من اوضح السبل بان تحصل المعنى عند
الشروع في تحرير الشعر وتحرير النثر قبل اللفظ والقوافي قبل الايات ولا تكره الخاطر على
وزن مخصوص وروي مقصود وتوخ الكلام الخزل دون الرذل والسهل دون الصعب والعذب
دون المستكره والمستحسن دون المستهجن . ولا تعمل نظماً ولا نثراً عند الملل ولا تولف كلاماً
وقت الفخير فان الكثير معه قليل والنفيس معه خسيس . والخواطر يتايع اذا رفق بها حمت
واذا عُنِف عليها تزحت . واكتب كل معنى يسخ وقيد كل فائدة تعرض فان نتائج الافكار
تعرض كلمعة البرق ولمعة الطرف ان لم تقيد شردت وندت وان لم تستعطف بال تكرار عليها
صدت والتزم بالشعر مما يعين عليه قال الشاعر

تغن بالشعر اما كنت قائله ان الغناء لقول الشعر مضار

وقد بكل الشاعر حيناً ويستعصي عليه الشعر زماناً كما روي عن الفرزدق انه قال :
لقد يمر علي الزمن وان قلع ضررس من اضراسي لاهون علي من ان اقول نيثاً واحداً فاذا
كان كذلك فاتركه حتى يبيئك عفواً وبنقاد اليك طوعاً . واياك وتعقيد المعاني وتغيير
الالفاظ واعمل سيف احب الاغراض اليك وفيها وافق طبعك والنوس تعطي على الرغبة
ما لا تعطي على الرغبة . واعمل الايات منفردة بحسب ما يجود بها الخاطر ثم نظمها في الاخر
واحترس عند جمعها من عدم الترتيب . وتوخ حسن النسق عند التهذيب ليكون كلامك
آخذاً بعضه باعناق بعض فهو اكمل لمنه وامتن لرضنه . واجعل المبدأ والمخلص والمقطع
فان ذلك اصعب ما في التصيد . واجتهد في تجويد هذه المواضع وتجنب معاريض ارباب

الخواطر فيها وتوارد هم عليها وميز في فكره معط الرسالة ومصوب القصيدة قبل العمل فان ذلك سهل عليك واستعددها أولاً ونقحها ثانياً وكرر التنقيح وعاود التهذيب ولا تخرجها عنك الا بعد تدقيق النقد وانعام النظر .

فقد كان الخطيئة بعمل القصيدة في شهرين وبنقحها في شهرين افتداه زهير فانه كان راوياً . وقد كان زهير يعمل القصيدة في شهر واحد وبنقحها في حول كامل حتى قيل لشعره المنقح الحولي او الحولي المنقح . واحذر اذا كاتب من الاسراف في الشكر فانه ابرام يوجب للكلام ثقلًا ولا تطل الدعاء فانه يورث مللاً . ولا تجعل كلامك مبنياً على الجمع كله فنظهر عليه الكلفة ويبين فيه اثر المشقة وتكلف لاجل الصنع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل بل اصرف كل النظر الى تجويد الالفاظ وصحة المعاني واجتهد في لقويم المباني فان جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان وان عسر ذلك فتركه وان اختلفت اشباعه وتباينت في التقفية مقاطعه . فقد كان المتقدمون لا يحفلون بالجمع جملة ولا بقصدونه بته الا ما انت به الفصاحة في اثناء الكلام والشفق من غير قصد ولا اكتساب وان كانت كلماتهم متوازنة والفاظهم متناسبة ومعانيهم ناصعة وعباراتهم رائقة وفصولهم متقابلة وجمل كلامهم متائلة . وتلك طريقة الامام علي عليه السلام ومن افنى اثره من فرسان الكلام كالحق المقق وسهل بن هارون وابي عثمان الجاحظ وغيرهم من الفصحاء والبلغاء .

ولا تجعل كل الكلام غالياً شريفاً ولا وضعياً نازلاً بل فصله تفصيل العقود فان العقد اذا كان كله تنبيهاً لا يظهر حسن فرائده ولا يبين كمال واسطانه . وانظر الى نظم القرآن العزيز كيف جمع صفات الابلاية الثلاث ليظهر فضل كل طبقة في بابها ويبين بحكم اسماها ويعلم ان ادناها بالنسبة اليها تعلو على اعلى الطبقات من كلام البلغاء ويربي عليها فان الكلام اذا كان متنوعاً افتشت الاسماع فيه ولم يلحق النفوس ملل من الفاظه ومعانيه واعلم ان الالفاظ اجساد والمعاني ارواح . فاذا قويت الالفاظ قوت المعاني واذا اضعفتها فاضعتها لتوازن قوى الكلام ولتناسب في الافهام . واقتصد القوافي السهلة المستحسنة دون المستعصبة المستعجبة والاوزان المستعملة الحلوة دون المجهورة الكثرة فان الشعر كالجواد والقوافي حوافره والالفاظ صورته والمعاني سرعته والاوزان حملته .

واجعل كلامك كله كالنقوشات وعليك بالمقطعات فانها في القلوب احلى واكمل وفي الحاسن ارقى واجول وبالاسماع اقلق وبالفوا اعبق . واذا ثرت منظوماً فغير قوافي شعره الى قوافي مجمعة واذا اخذت معنى بيت من بيت فخب الالفاظ حملتها ما استطعت

او معظمها وغير القافية والوزن وزد في معناه واتقص من لفظه واحترس مما طعن عليه به لتكون املك له من قائله واذا تقاربت الديار تقاربت الافكار . ولهذا قيل الشعر بحجة يقع فيها الخطر على الخطر .

واعلم ان من الناس من شعره في البديهة ابداع منه في الروية ومن هو مجيد في رويته وليس له بديهة وقلما يتساويان . ومنهم من اذا خاطب ابداع واذا كاتب قصر . ومنهم من بضد ذلك . ومن قوي نظمه ضعف ثره ومن قوي ثره ضعف نظمه وقلما يتساويان . وقد يبرز الشاعر في معنى من معاني مقاصد الشعر دون غيره . ولهذا قيل اشعر الناس امرؤ القيس اذا ركب وزهبر اذا رغب والنايفة اذا رهب وعنترة اذا كلب والاعشى اذا طرب .

واياك وتعميد المعنى في بسوء التركيب واستعمال اللفظ الوحشي فان خير الكلام ما سبق معناه القلب قبل وصول جلته الى السمع . وليكن كلامك سلباً من التكلم برباً من التعسف . ويحيط لفظك بمعناك وتشتمل عبارتك على مغزاك . واحذر الاطالة الا فيما تحمد فيه فان البلاغة لغة دالة . وقيل سرعة جواب في صواب . وقيل ان تقول فلا تبغلي وان تصيب فلا تحطلي . والصحيح من حدتها انها ايضاح المعنى باقرب الطرق واسهلها . والعجى اكثار من مبدار واخطا بعد ابطاء كما جاء في المثل سكت ألفاً ونفاق خلفاً . وقد رث اللفظ على قدر المعنى لازائداً عليه ولا ناقصاً عنه كما قيل في مدح بعض البلغاء : كانت الفاظه قوالب لمعانيه . وقيل في آخر : كان ان اخذ شبراً كفاه وان اخذ طوماراً املاه . واستعمل التطويل في مكانه والتقصير في مكانه فقد قيل : اذا كان الایجاز كافياً كان التطويل حياً واذا كان التطويل واجباً كان التقصير عجزاً . واياك ان تفرط فان فرطت قصرت او تفرط فان افرطت كثرت والا فانظر الى قصص الكتاب العزيز كيف انت وجيزة ومرة بسيطة كما قلت في وصفه في القصيدة التي مدحت بهار رسول الله صلى الله عليه وسلم به قصص نأيتك طوراً بسيطة ليفهمها من بسطها المتبادر

وطوراً بايماز تبث لذي حجبى له زند فهم ثاقب ليس يصلد

وفي الجملة مهما كان الایجاز كافياً والمعنى به واضحاً فالاحاطة ان لم تكن عياً كانت عباً ولم يزل اجلاء المتقدمين يحمدون ذلك ويذمون ما سواه وبذلك على اختيار هذا المذهب ما يمكن عن احمد بن يوسف الكاتب فانه قال : دخلت يوماً على المؤمن وفي يده كتاب وهو يعاود قراءته نارة بعد اخرى ويصعد فيه نظره ويصوبه قال : فلما مرث على ذلك مدة التفت اليّ وقال : يا احمد اراك مفكراً فيما تراه مني فقلت : نعم وفي الله امير المؤمنين المكاره وانعاده من الخاوف فقال : انه لا مكر وه في الكتاب ولكن قرأت فيه كلاماً وجدته نظير

ما سمعت الرشيد رحمه الله يقول في البلاغة فإني سمعته يقول : البلاغة التباعد من الاطالة
والقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على المعنى . وما كنت اتوهم ان احداً يقدر
على هذا المعنى حتى قرأت هذا الكتاب ورأيت به اليّ وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة
البنافال : فقرأته فإذا فيه : « كتابي الى امير المؤمنين ومن قبلي من قواده وسائر اجناده
في الانقياد والطاعة على احسن ما يكون عليه طاعة جند خزنت ارزاقهم وانقياد كافة
تراخت أعطياتهم فاختات لذلك احوالهم والتأثت معه امورهم » . قال : فلما قرأته قال لي :
يا احمد ان استحسن هذا الكلام بعثني على ان امرت للجند قبله بعطياتهم لسبعة اشهر وانا على
مجازاة الكاتب بما يستحقه محله من صناعته .

وروي ايضاً عن المأمون انه امر عمرو بن مسعدة الكاتب هذا ان يكتب لرجل يعني
به الى بعض العمال بالوصية عليه وان يختصر كتابه ما امكنه حتى يكون ما يكتب به في
سطر واحد فكتب اليه عمرو بن مسعدة « كتابي اليك كتاب واثق بين كتب اليه معني
بما كتب به وان يضيع بين الثقة والعناية حامله ان شاء الله تعالى »

وقد كان جعفر بن يحيى مع تقدمه في هذه الصناعة يقول لكتابه : ان استطعتم ان
يكون كلامكم كله مثل التوقيعات فافعلوا . واما قول قيس بن خازجة لما قيل له ما عندك
في حمالات داحس فقال عندي قرى كل نازل ورعى كل ساحط وخطبة من له من
طلوع الشمس الى ان تغرب آمر فيها بالتواصل واعي عن التقاطع فان ذلك لم يخرج منخرج
المدح للاطالة المذمومة لان الاطالة المذمومة هي اطالة العبارة عن المعنى الواحد بالالفاظ
الكثيرة . وانما اراد قيس الاكثار من المعاني فاذا كثرت المعاني احتاج المتكلم الى كثرة
الالفاظ للعبارة عنها ولا يفاضلها وليوفي بمقصوده فيها . ومتى اطال الكلام لذلك كانت
اطالته بلاغة لا عيباً فان حقيقة البلاغة ايجاز من غير اخلال واطناب من غير امال
لا سيما خطيب الاملاك والسجلات التي تقرأ على رؤوس الجماعات اه

